

توطين الآشوريين في حوض العاصي

ام . موريس بيرارد
(حاكم الساحل السوري ولبنان الكبرى)

(نقله الى العربية: كبرييل كوركيس)

أظهر تاريخ الربع قرن الأخير أهمية التعاون أهمية التعاون والتعاقد الفرنسي - البريطاني. فهذه المسؤولية المشتركة لا تقتصر أهميتها على الشؤون الأوربية، بل تتعداها لتشمل شؤون الشرق الأدنى أيضاً، حيث مصير الطوائف المسيحية محفوف بالمخاطر على الدوام، فالمسيحية هي، برغم كل شيء، صك براءة الحضارة التي تشكل كل من فرنسا وبريطانيا حيز الزاوية فيها. ولذلك فمن الطبيعي أن يقوم هذان البلدان بمسعى مشتركاً، مادياً ومعنوياً، لإيجاد حل لمعضلة العشائر الآشورية البائسة، التي ساء قدرها الى درجة كبيرة خلال العقدين الأخيرين. لن أتوقف هنا لأعيد الى الأذهان أصولهم وتفصيل معاناتهم، فقد عمل آخرون ممن هم أكثر أهلية مني على تقديمهم وتعريفهم، بما فيه الكفاية، للرأي العام البريطاني، المتميز دائماً بحس مرهف ازاء محن السكان الوطنيين.

كانت ثمة استغاثات واسعة النطاق لجمع الأموال التي ستسهل تحقيق العمليات الإنسانية التي باتت ضرورية بسبب دراماتيكية الأحداث.

الآشوريون - الذين يتجاوز تعدادهم العشرين ألف نسمة - ينبغي نقلهم من شمال العراق الى المناطق السورية التابعة لسلطة الإنتداب الفرنسي. كما يجب انجاز عمليات النقل هذه بطريقة تجد معها العوائل التي تشكل قوام الشعب الآشوري ضمان أمنها الشخصي وضمان ممتلكاتها - الحماية الجسدية والعدالة وحرية الضمير واحترام التقاليد والأعراف واللغة، في الحقيقة، كل ما لم نزل نحن بعد نمثلك الشجاعة لتثمينه في فرنسا وانكلترا - ذلك المبدأ العريق للعدالة الذي، من حيث الجوهر، لا يُزعج أحداً مطلقاً طالما عاش بشرف واستقامة. إذن، هنا تكمن المعضلة. كيف سنتعاون فرنسا مع أولئك الرجال الممتازين الذين فوضتهم عصابة الأمم لتنفيذ المهمة المنتوى حلها؟

لا يجوز أن يغرب عن البال بأن مجموعة من المهاجرين الآشوريين قد وصلت منطقة الخابور في شمالي سوريا منذ عام 1933، وأخذت تتنامى منذ ذلك الحين ليبلغ تعدادا الحالي زهاء (6000) نسمة .

النظام الاجتماعي

نظامهم الاجتماعي في جوهره نظام عشائري تُشكّل فيه العائلة "النواة" الأساسية - بالمفهوم الواسع للكلمة. ورأس العشيرة الـ "ملك" تتم تسميته أحياناً وراثياً وأحياناً بالأقتراع. وقد يتولى المنصب طيلة حياته أو يتنحى عنه بعد فترة محدودة، وأمر بقائه مرهون بالعشيرة ذاتها. رب الأسرة يتمتع بنفوذ واسع في عائلة أبوية (بطرياركية) حقاً.

وینحصر تزواجهم غالباً فی ما بینهم، وبإیثار أفراد العشیرة ذاتها. ولأما یجد المرء حالات تزواج فیها رجال آشوریون بفتیات کلدانیات أو أرمنیات، ویستحیل العثور علی نساء آشوریات متزوجات من غرباء. والرجل ینتاع زوجته، التي یُسدد ثمنها (مهرها) لأبیها، وفي حالة غیاب الأب فلاقرب أقربائها. وتجلب المرأة من طرفها جهاز عرسها بما ینتاسب وقيمة المهر المدفوع، ولا یُسمح بالطلاق البتة، فعقیدتهم الدینیة تُحرم ذلك، ببداً أن ثمة حالات نادرة محددة بصرامة یُمكن فیها إبطال شرعیة الزواج، وهذا البطلان یتوجب إصداره من قبل الأکلیریکی الأرفع منزلة فی الهرم الكنسی. یُفرض علی الزوج الذي یفسخ عقد زواجه تسدید مبلغ مالی لذوی قرینته، فتعود الزوجة المطلقة مجدداً لتخضع لوصایة رب الأسرة.

نسبة الولادات عالیة، ویتعذر اعطاء أرقام دقیقة بشأنها، فقد بلغ تعداد الرعیل الأول من الآشوریین الذين هاجروا الی سوریا فی عام 1933 (550) رجلاً فقط، ولم یکد یُسمح لزوجاتهم الألتحاق بهم فی أیلول (سبتمبر) 1934، حتی أسفر لم شملهم عن (400) ولادة فی عام 1935. وسائر المهاجرین الذين أرتفع بوصولهم فی عام 1935 التعداد الی ذروته أي (6000) نسمة.

أما وضعیة المعیشیة وطبیعة مساکنهم فهي عین تلك المُعدّة لهم فی المرحلة التمهیدیة لأنشاء مستوطناتهم الجدیة فی سهل الغاب.

النظام الأقتصادي

بغیة تنمیة الثروة الزراعیة للأراضي الممتدة علی ضفاف نهر الخابور، حیث حط المهاجرون الآشوریون الرحال، صُممت ثلاث محطات لضخ المیاه، واحدة منها ذات ثلاثة محرکات بقوة (50 قدرة حصانیة)، ومحطتان بثلاثة محرکات بقوة (10 قدرة حصانیة). والمحطة الأولى ذات المحرکات الثلاث بقوة (50 قدرة حصانیة)، وإحدى المحطتین ذات المحرکات الثلاث بقدرة (10 قدرة حصانیة)، قد تم إنشاؤها فعلاً. ویجری حالياً بناء المحطة الثالثة. ویقدّر أنها المحطات الثلاث ستفی بری مساحة (4,525) أكر. والمیاه التي ستضخها هذه المحطات ستخصص بصورة رئیسیة لمزارع الحنطة. أما البساتین، التي تُنتج الخضار للتسویق المحلي، فیتم إرواؤها بواسطة الدوالیب (النواعیر)، التي تُصنع من الأخشاب أو المعادن. البذار الأول فی خریف عام 1935، تآلف بصورة رئیسیة من الحنطة والشعیر والعدس والحمص واللویبة (القول). لقد آنتت المزارع غلالها، والأراضي تخضع حالياً لإشراف بعثة الوصایة. ولن تُسلم الأراضي المزروعة لعائلات العشائر حتی تتم زراعة مجمل المساحة البالغة (4,448) أكر. أما بساتین تسویق الخضار فهي تواءم ملك المستوطنین الذين یملكون إنتاجها.

ما تزال الزراعة فی بدايتها. وقد أعتمد أولئك المهاجرون حتی الآن علی هیات مكتب الوصایة. وإعالة الفرد الواحد - لحم مطبوخ ودقیق وخضار - تُكلف ما یُعادل فرنكاً واحداً یومياً. وسیتم خفض الحصص التمیونیة من الآن فصاعداً، حیث أعطت بساتین الخضار نتائجها الأولية ونتاج القطعان والأسراب التتوعة، التي جلبها المهاجرون أو إبتاعها القیمون علی أمورهم، قد تحقق. كما شرع أفراد المستوطنة حالياً بمقایضة فائض إنتاجهم فضلاً عن البیع فی الأسواق المجاورة، كراس العین والحسكة. ویعتقد أن المستوطنة ستحقق إكتفاءها الذاتي بحلول عام 1937، وستكون فی غنى عن المعونات مالیة.

الخبرة التي إكتسبتها الإدارة سلفاً ستكون عظيمة الشأن عندما سيُسكِنون عوائل اللاجئين الحديثي الوصول في سهل الغاب. والغاب في الحقيقة سهلٌ تغمره المستنقعات. ويبلغ طوله زهاء (37) ميلاً وعرضه (5 - 6,25) ميلاً، يخترقه نهر العاصي. وأرضه المغطاة بالأدغال ستفي بغرض زراعة الحبوب والقطن والرز أو التبغ وغيره. ويجدر بنا التذكير بأن هذه المنطقة في العصور القديمة كانت مركزاً يُزوّد سائر أنحاء سوريا المركزية بالمؤن.

الخطط التي تم تبنيها سُنِعِدُ نظاماً لتصريف المياه وريّ السهل برمته - مساحة تبلغ حوالي (98,800) أكر - سيُخصّص منها (37,050) أكر للآشوريين.

تم ترتيب الأعمال على النحو التالي:

(1) إنشاء خزان للمياه (صهريج) في العشارنة على نهر العاصي. يقع الخزان في القسم المنخفض من سهل العشارنة، ويُشيد لإحتجاز المياه الفائضة بسبب إرتفاع منسوب النهر أثناء أشهر الشتاء، وخبز إحتياطي يمكن توزيعه في مواسم الجفاف.

وسيُبنى سد يبلغ طوله حوالي (2,734) ياردة في موازاة القمة، وأقصى إرتفاع له لا يتجاوز الـ(46) قدماً. والسعة الاجمالية للخزان (176,580) مليون غالون.

المنفذ المشيد في مقدّم السد، عبارة عن برج متعامد، يضم بوابات (صمامات) التحكم الإثنى عشرة، التي تُنظّم تدفق المياه في القنوات الست، التي تقوم بدورها برفد قناتي الري الرئيسيّين والتحكم في توجيه الفائض من المياه في نهر العاصي. وفي مواسم الفيضان ستتوفر كميات كافية من المياه لغمر مساحة (54,700) أكر. وسيصل الحد الأقصى للمياه المتدفقة خلال الجدول الى (1,518,610) قدم مكعب في الثانية الواحدة.

(2) أعمال لتنظيم مياه الفيضان من الخاركور.

(أ) إقامة سد عند نهاية مجرى تيار التعديل الجديد لنهر العاصي، مصمم لتنظيم منسوب المياه أثناء مواسم التدفق الأدنى في قنوات التصريف خدمة لإحتياجات الزراعة ولفائدة أفضل.

(ب) شق نفق طوله حوالي (984) ياردة لضمان ديمومة التدفق. وسيُصمّم هذا النفق بشكل مستطيل يتراوح عرضه بين (17 - 18) قدماً وإرتفاعه تسع أقدام وعشرة إنجات (بوصات)، وستبلغ قدرته الإنتاجية القصى (2,825) قدماً مكعباً في الثانية.

(3) زيادة عمق نهر العاصي. وسيتحقق هذا العمل برفع وإزالة الأوحال من قاع النهر وتعديل معظم المنعطفات الحادة.

(4) قناة لتصريف المياه. وهذه ستضم القناة الرئيسية لأكثر من (20) ميلاً طولاً، والقنوات الثانوية (الفرعية) التي يبلغ مجمل طولها حوالي (40) ميلاً.

(5) قنوات الري. وهذه ستضم القناة الرئيسية بطول يصل الى (25) ميلاً، وقنوات فرعية يصل اجمالي طولها الى (56) ميلاً، وقنوات إضافية لإيصال مياه القنوات الأنفة الذكر الى ممتلكات الأهالي بغية سقيها.

الخطة العامة التي تتوخى تحسين سهل الغاب مبنية على تخصيص (13,2) غالون من الماء لكل (2,5) أكر في الثانية، لكن يؤخذ في الحسب مقدار المياه التي ستكون نافعة في خزان العشارنة، فقد تم احتساب أن قنوات الري سُبُدّد حوالي (30%) من الإنتاجية المتقدمة في الثانية لتسمح بإحتياطي للأراضي التي تتطلب

رياً مُركزاً (كالرز والمروج الجديدة).

إن الكلفة الكلية لهذه الأعمال، التي تسمح بتخصيص (37,050) أكر فقط للآشوريين، تم تقديرها بمبلغ (62,000,000) فرنك سيتم إنفاقها بين عامي (32 - 1939) وسيُنجز ذلك بأشراف مصلحة الأشغال العامة السورية.

أستيطان (21,000) آشوري

الآشوريون، الذين سيتم توطينهم حالياً في سهل الغاب، يشكلون في البدء ثلاثة عشر ألف شخص، تم أستقدامهم مباشرة من منطقة الموصل الى الغاب (تقريباً 6,000 منهم في عام 1936 و 7,000 خلال العام 1937) وفي النهاية، عندما يتم أنجاز الأعمال في سهل الغاب على نحو كلي، سيتم نقل (8,500) آشوري من مستوطنة الخابور، التي سيتم إغلاقها، حيث يتواجد حالياً (6,000) شخص وسيأتي (2,500) آخرون في غضون عام 1936.

جل أولئك الآشوريين من الطائفة النسطورية، خلافة من الكلدان أو الكاثوليك. سئشرف منظمة مستقلة على حماية أستيطانهم، تُدعى بـ" مكتب الوصاية" وتُعيّن من قبل عصابة الأمم وأعضاؤها ثلاثة، تتم تسمية أحدهم من قبل المفوض السامي الفرنسي في سوريا. وسيتولى الأعضاء الثلاثة الأشراف على:

- (1) نقل المستوطنين من العراق.
- (2) التوطين المؤقت أثناء فترة اعداد مستوطنات الغاب، لأولئك الذين سيتم استقدامهم مباشرة من العراق.
- (3) المستوطنة الفعلية.

(1) النقل: توطين الآشوريين القادمين من العراق سيُنقذ برعاية الحكومة العراقية حتى السكة الحديدية في تل كوجك بواسطة شاحنات، ومن تل كوجك الى حماه بالقطار، ومن ثم الى العشارنة بالشاحنات ثانية. تبلغ كلفة نقل الفرد الواحد مع مائة كيلوجرام من الأمتعة على وجه التقريب (12) فرنكاً من تل كوجك الى حماه، وأربع فرنكات من حماه الى العشارنة.

(2) المستوطنات المؤقتة خلال مرحلة اعداد مستوطنات الغاب. تم إستئجار أراضي مساحتها (1,976) أكر بجوار سهل الغاب لغرض تأمين الراحة مؤقتاً للنازحين.

وبوصولهم ستحل الفصائل في خيم يتم إستئجارها من الإدارة العسكرية. وسيشروعون مباشرة بعمليات بناء الدور التي ستأويهم طيلة السنوات الخمس التي يتطلبها العمل في الغاب. وستشيد هذه الدور من القرميد غير المحروق، الذي يتمتع بميزات عالية، أما الأبواب والنوافذ فتعمل بطريقة لا تستلزم أية اجزاء خشبية. وستكون ثمة قبتان لكل دار تمثلان غرفتين مستقلتين، وستأوي كل دار عائلة واحدة.

بناء دار كهذه سئكلف (300) فرنك. ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الدور تُشكّل تحسناً ملحوظاً في المساكن التي توفرت لأولئك الناس حتى الآن. لقد جهّز مكتب الوصاية أيضاً أراضي لزراعة الغلال. وستتم الإستفادة من الأيدي العاملة منذ الوهلة الأولى، كمزارعين وعمال بناء وتعمير. لقد تم الإتفاق مع المتعهدين على تشغيل الأيدي الآشورية العاملة الى حد ما في مرحلة إعداد الغاب.

وأخيراً ، سُنَجَزَ التوطين الفعلي في القرى الدائمة. وفي البدء ستبلغ كلفة إعالة الفرد الواحد زهاء فرنك واحد يومياً، ويُعتَقَد أن هذه الكلفة يمكن خفضها الى النصف مع حلول نهاية العام وذلك بفضل نتاج المحاصيل الزراعية.

(3) ينبغي أن يتضمن الاستقرار والأستيطان الفعلي ما يلي:

(أ) بناء وتنظيم القرى.

(ب) زراعة الأراضي التي تم استصلاحها عن طريق تصريف مياه السهل.

(أ) بناء وتنظيم القرى: سيتم بناء القرى على سفح التل، في مواضع تم اختيارها آخذين بنظر الإعتبار التزود بالمياه ومراكز الزراعة. وسيتم تشييد الدور بالأحجار وسيتم تخطيطها بشكل مماثل للدور التي تجاورها. كما ان مكتب الوصاية يُقَدَّر بأنه لا يمكن الأستغناء عن معونته في بناء القرى، لا سيما في تجهيز المواد الأولية. والمباني العامة، كالكنائس والمدارس والمستشفيات وغيرها، سيتم بناؤها بدعم وأشرف المكتب.

وستنظم القرى بقدر الإمكان ليتسنى اسكان أبناء كل عشيرة سوية، وستكون العشائر تابعة لسلطة رؤسائها (مالكيها)، الذين سيمثلونها أمام السلطات الإدارية المؤقتة بأشرف المكتب، لحين يتم توطيد النظام الجديد. وسيكون رجال الشرطة من أولئك الوطنيين التابعين للسلطات الفرنسية، وسيقبل الآشوريون بأحكام (مقررات) المحاكم الوطنية (السورية) في كل القضايا ذات الصلة بالنظام الحكومي، ومن جانب آخر فإنهم سيحتفظون بمؤسساتهم الدينية الخاصة للتحكيم في المسائل المتعلقة بأحوالهم الشخصية.

وستخضع الخدمات الصحية لأشرف المدير الفرنسي للخدمات الصحية للعسكريين في الشرق، الذي سينال العضوية غير الرسمية في مكتب الوصاية. وسيتم إنشاء المستوطنات في كل القرى، فضلاً عن فتح مستشفى يضم ثلاثين سريراً. وسيقوم المكتب باتخاذ التدابير اللازمة لضمان العلاج الطبي في مستشفى "القديس لويس" الكائن في حلب، للحالات التي تتطلب عناية خاصة أو إجراء عملية جراحية. وسيعين المجلس طبياً لتنظيم الخدمات الصحية، فضلاً عن ممرضين آشوريين قد تم إلحاقهم توأً بالمستوطنات في العراق ليسهروا على مستوصفات ومستشفيات القرى. هذا وتجري الإستعدادات لأخذ التدابير اللازمة لمكافحة الملاريا بالمعالجة الإلزامية، ليس في صفوف الآشوريين فحسب، بل للمواطنين السوريين بأسرهم.

وسيقدم التعليم المدرسي مجاناً من قِبَل مكتب الوصاية، وسيكون المعلمون من الآشوريين ولغة التعليم الآشورية. وإلى جانب الآشورية سئلزم التلاميذ بتعلم العربية والفرنسية. والمدارس في مرحلتها الأبتدائية وهي ترمي على نحو خاص الى تطوير التقنية الزراعية والحرف اليدوية. سيتم في كل قرية بناء كنيسة، ليجري فيها التعليم الديني - الذي لن يتم في المدارس - على أيدي الكهنة. ويُعتَقَد أنه سيكون في وسع كل قرية توفير أشغالها. وسيتولى مكتب الوصاية تعيين الحرفيين، أما سائر الأهالي فسيعملون بالزراعة.

(ب) استغلال الأراضي للزراعة، مساحة (37,050) أكر من الأراضي التي حُطِّط لإستصلاحها سُمِنَح مجاناً لمكتب الوصاية، بما يتناسب مع تقدم العمل، وسيأخذ مكتب الوصاية على عاتقه مهمة توزيع الأراضي على الآشوريين. ويعتمد التوزيع على مبدأ العوائل أو مجاميع من العوائل، وذلك عبر

التشاور مع رؤساء العشائر، وسيسعى المكتب الى تفادي أي تشتيت لأبناء العشيرة الواحدة بقدر ما تسمح به الظروف. وسيتم حجز أراضٍ إضافية تحسباً لأي نمو في عدد سكان المستوطنة. وبناءً على التخصيص الذي وُجد عملياً حين تم توطين الأرمن، فإن رقعة من الأرض مساحتها (10) أكر ستتيح فرصة للعيش للعائلة الواحدة. ويمكنها بيع فائض الإنتاج إما في الأسواق السورية أو في الأسواق الساحلية.

وسيتم مستقبلاً بيع الأراضي، التي سيتم توزيعها، لشاغلها بأسعار يُحددها مكتب الوصاية، بحيث يُسددها المزارعون بأقساط سنوية خلال خمس عشرة سنة. ولا يمكن تسليم سند الملكية العقارية الى شاغل الأرض حتى يفي بكل ما بذمته من ديون. ويرتأي المجلس ضرورة تنويع المحاصيل الزراعية بقدر المستطاع، لذلك سيُوظف مرشد زراعي وسُجري التجارب على مختلف المحاصيل حالما يتم استصلاح أول قطعة أرض، بغية التحقق من نوعية المحصول الأفضل الذي سيفي بالغرض على أتم وجه.

هذا هو إذاً البرنامج. وقد بوشر بتنفيذه. والعمل الآن في متناول أيدي الرجال المكلفين بأجازه. وقد تم الشروع في انجاز عمليات تصريف المياه. والفريق الأول من الآشوريين على وشك الوصول. وسينتهي العمل في غضون خمس سنوات لِنُفُتِح صفحة جديدة في تاريخ الشعب الآشوري.

علينا الإعلان بعميق الأسف عن التخلي عن مشروع توطين الآشوريين في حوض نهر العاصي.

MELTHA.DK